فلسفة المازني .... (المازنية)

مع أن المازني كان يمقت الفلسفة أشد المقت ، ويعلنها في كل مناسبة إلاَّ أن هذا لا يمنع أنه كان يصدر عن فلسفة في نظرته في كل ما حوله .... ولكنه ليس من هذا النوع الذي يصدر عن مذهب فلسفي أو مدرسة فلسفية تجمع شتات نظراته وأفكاره وانطباعاته ، وإنما يفكر بإحساسه ووجدانه ، ويعطي للقارئ انطباعا صادقا خاليا من الجدل الجاف والمحاورات العقيمة ... وانطباعه هذا يتصف بالشمولية ، فهو عن الحياة والموت والحب والطبيعة والخلود والزواج والمرأة والشباب .

ولا نريد أن نسمي هذا فلسفة ، وإنما هو إحساس صاف ووعي متيقظ لذات مرهفة آثرت أن تسجل موقفا من كل ما حولها ، وهذا الموقف نابع من الذات لا يشوبه شائبة ، ولا تجد غير المازني يخرج عليك بهذا الإحساس ، وإن شئت أن تطلق عليه (المازنية) نكون قد اقتربنا من جادة الصواب .

في صفحة (٨٧) من قصة (إبراهيم الثاني) على لسان (تحية) زوج إبراهيم : (كانت تعرف أن زوجها يحس "بعقله" أي يحول كل إحساس إلى فكرة ويروح يعرضها على عينيه ويتأمل وجوها وخواطره هي الصورة التي تتخذها إحساساته وكثيرًا ما تتحول الفكرة عنده إلى إحساس ، فهذا يتسرب في ذلك وذلك يعود فيتسرب في هذا ولا نهاية لهذا التحول عنده) .

وهو إذا أحس بشيء مضى في تصوير هذا الإحساس غافلاً عما حوله ، وعما هو فيه أن وقد لا يكون هذا منسجما مع العمل ككل ، ولكنه يفضل أن يمضي معه حتى وإن كان لا يتناسب مع بقية أجزاء العمل ، ففي أكثر قصصه لا تتلاءم

الجزئيات مع الكل . وفي العمل القصصي ينبغي أن تسخر الجزئيات في خدمة الكل . وتكون الحركة موزعة في نواحي العمل . مثل حركة الثعبان ، وأن لا سيتغرق القاص في جزئية تجعله يغفل عن بقية الجزاء ، ولكن هذا مع القاص المتمكن من فنه ، ولكن (المازني) كان يعتبر القصة مجالا ليعرض فيه خواطره ونظراته ، حتى ولو لم يكن هناك مبرر لتكل الخواطر . فالقصة له كالجراب يسع كل شيء ، ويتسع لكل شيء ، بدون أن يحاول انتقاء ما يجب أن يوضع وما لا يجب ، ففي الفصل العاشر من قصة (إبراهيم الكاتب) في صفحة (٥٩) نهض في الصباح ونظر من النافذة وبدون ان يكونهناك داع كتب ثلاث صفحات عن الطبيعة ووصفها بالقسوة . نعم إنها تعطي شيئا من فلسفة المازني ، ولكن إذا حذفت تلك الصفحات من القصة ما أخل ببنيان القصة ، بل قد يكون من باب استبعاد ما لا لزوم له : (من الخطأ أن تنعت الطبيعة بالقسوة كلا ليس في الطبيعة قسوة حقيقية - إنها حارة حية ولا تكاد تتفق الحرارة والقسوة وإذا كان بعض ما فيها يسطو على البعض الآخر ويأكله أو يلتهمه أو يأتي عليه فما قيمة هذا ؟

إن كل شيء يحياوإذا كان يموت فإنما هذا ليعين غيره على الحياة ، وأين يا ترى قرأ أن الكون فنان لا يزال يعبر عن نفسه بصور مختلفة ؟ لا يذكر أين قرأ هذا ، ولكنه يذكر أيضا أن الكاتب قال – أم ترى هو صاحب هذا الخاطر ؟ - أن هذا الفنان العظم لا يزال يخفي فيما يحاول أن يبدعه ويخلده من خارجياته ، على أن العالم بل العوالم كلها صغيرها وكبيرها مثلنا ومثل الأزهار والأشجار ليست قطع شتى من هذا الفن وكل منها تام في ذاته كامل من حيث هو وكل حياة تجري

إلى هداها ثم تراق وترد إلى هذا الفنان المبدع الذي لا ينفك يجادل ضروبا جديدة من الفن) .

وبعد أن تحدث فيما يسمى بالتعادلية في الطبيعة ، وأن ما يحدث فيها من صنع فنان عظيم لا يزال يخفق فيما يحاول أن يبدعه ، ترك هذا وتحدث في العقل والمادة ، يقول:(العقل والمادة شيء واحد ، ومن يدري ؟ فلعله ليس لا عقل ولا مادة وعسى أن لا يكون هناك إلا نمو وذبول ثم نمو جديد وذوي وهكذا إلى ما لا نهاية : فنان لا يفتأ يعبر عن نفسه في ملايين وملايين من الصور المتغيرة والذبول والموت – أو ما نسميها كذلك – إنما هي راحة ونوم ، أو هذا هو الجزر الذي يجيء بين مدين أو الليل الذي يفصل نهارين والنهار الذي يطلع لا يشبه الذي سبقه في شيء ولا المد كالذي قبله . هذه الصور التي نراها في الدنيا وفي أنفسنا ، هذه القطع الفنية التي يخرجها الفنان الأعظم لا تعود ولا تبقة على حال واحد ولا تلتزم شكلاً معينا بل هي دائما جديدة ، عوالم جديدة وآحاد وأفراد جديدة وأزاهير طريفة وليس هذا ما يكرب النفس ، كلا إنما ما يكرب النفس أن تعلم أنها ستظل حية أبدًا حتى بعد ما يسمى الموت أو أنها ستحي كرة أخرى في جسم آخر فلا أنا أنا ، ولا أنا مخلوق آخر ، إن هذا يكون ماذا ؟ فساد ذوق ؟ هبني كتبت مقالا أو وضعت قصة أو نظمت قصيدة . فهل أستطيع أن أتصور أن مقالتي تصبح مقالة اخرى أو قصيدتي تنقلب قصيدة ثانية ؟ فهل هذا في وسعي أو سوع سواي أن يفصل ما بين العبارة التي صببت فيها المقالة أو القصة أو القصيدة ، وإعادة الذهنية التي أعربت عنها بهذه الألفاظ ؟ كلا - وكما أني أنا الفنان الأصغر لا أزال أصوغ كل يوم جديدا كذلك الفنان الأعظم لا يزال يخرج من القديم جديدا ومن التالد طريفا

كالنافورة تقذف الماء خيطا من القطرات لا تشبه منها واحدة أختها وتقع هذه القطرات في الحوض وتعود ادراجها من الأنابيب إلى النافورة فتقذفها قطرات جديدة مصوغة في اشكال وحجوم غير الأولى .

ثم نهض وقال لنفسه : (ولكني لا استطيع أن أفهم أو أدرك لماذا تظل هذه القوة الأبدية منهمكة في الإعراب عن نفسها في صور فردية شتى لا آخر لتنوعها ؟ لماذا لا تكف ولا تنقطع عن العمل ولا يصير كل شيء إلى (لا شيء) ؟ ظلام أبدي شامل !

ويا ليت من يدري أهما اثنان لا ثالث : أن يظل هذا الفنان يعمل ويخرج ويبدع كما هو فاعل أو أن لا يكون ثم شيء على الاطلاق ؟ وهل من الاتفاق المحض أن يحدث هذا ولم يحدث ذاك ؟) .

ثم بعد أن عرض خواطره على هذا النحو ، يعود فيسأل:(كل هذا جميل ولكن هل بنا حاجة غلى التفكير؟ هذه الدنيا أمامنا وأحسب أن كل منا بحاجة إليه هو أن نتناولها كما هي وأن نقنع بذلك).

فالوجود حوله ثر وغامض في هذا الثراء ،ومتجددباستمرار لا تبلى جدته ويتساءل ما نهاية هذا الوجود ؟ وحين يعجز عن الإجابة يقبل الوجود على ما هو عليه ن بدون تنظيرأو فلسفة ، وإذا كان هذا رأيه ، فما سبب أنعرض لتلك الخواطر ، فلو حذف المقطع السبق كله واكتفى بعرض رأيه الشخصي أو إنطباعه لكان أجدى للقصة والقارئ معا .

أم أن تلك الخواطر التي عرضها وجالت في ذهن الشخصية المحورية في القصة من لوزام سمات الشخصية ، فهو كاتب ومن سمات الكاتب أن يمضي الجزء

الأكبر من ساعات يومه مفكرًا متأملاً ، ولكن حسبه الإشارة إلى تلك الخواطر غشارة طفيفة إلى ما كان بخاطره لا ان يعرض له هذا العرض المسهب ، وهو بعد ذلك يدير الحوار بينه وبين (شوشو) - التي سيعقد معها علاقة حب أثناء وجوده بمنزل الشيخ على – حينما تدخل عليه ، فتسأله :

- ماذا كنت تصنع ؟

- لا شيء .

ولكن وجهه مال إلى النافذة فقالت :

- أكنت تسخط على هذه الطبيعة التي لا تثبت على حال ؟

ألا ترى معي انها كالطفل ، تكون عابسة باكية ثم إذا هي تضحك لغير سبب مفهوم ؟

إن تناقضها أو اضطرابها كثيرًا ما يحيرني ؟ وكم تمنيت لو أني أستطيع أن ألزمها الحالة التي يتفق أو تروقني – إلى أن يتغير مزاجي على الأقل .

فعجب أن يجيء أول ما يجري بخاطرها بسبيل مما كان هو يفكر فيه ولكنه كتم هذا – وإن لم تكتمه عيناه – وقال مجيبا على كلامها :

- كلا يا (شوشو) . أنا لا أحس بالرغبة في إلزام الطبيعة حالة أو بعبارة أخرى لا أتمنى أن أفرض عليها مزاجي الخاص أو أي مزاج معين . ولعل ذلك لأن تنوع الأمزجة وتعدد الحالات التي تكونه عليها الطبيعة في جميع مظاهرها هو مصدر السرور الذي أفيده منها ، بل هو الذي يرجع إليه ويقوم عليه إيماني بالحياة ولولا هذا التنوع لما بقى شيء اسمه الحياة .

فافترت عن ابتسامة اعجاب وقالت :

- **ذلك لأنك أديب . لأنك إبراهيم الثاني !**

قال : (أحب الأمر كذلك ، وإن كنت لا أرى أن كوني كاتبا هو السبب في ذلك كلا إن طبيعة الفنان أو روحه ترتاح إلى التغير فأنا أجل هذه الجدة التي أراها كل صباح يطلع وكل مساء يجيء . وفي كل شخص وفي كل مظهر من المظاهر التي تعبر بها الحياة عن نفسها . ارتاح لأني لا أرى شيئا نهائيا . ولما كان التغيير دائما فلا أراني أشبع من النظر والتأمل والتفكر أحب كل شيء ما كان وما هو سيكون أحب حتى الموت) .

هنا نرى المازني روحًا عاشقة لكل ما حولها . تعشق حتى الموت ؛ لأنه نوع من التغيير . فالطبيعةوالحياة في نظر المازني هما التجدد والتغير والاستمرارية في هذين الشيئين . لذلك يعرض (شوشو) في رغبتها أن تلزم الطبيعة على حال واحد لتتوافق وحالتها النفسية ، أو المزاجية ، لأن في هذا نفي لروح التجدد والمغايرة في الكون حولنا ... وأن تكون الطبيعة كل ساعة في حال سواء وافق هذا مزاجنا أم خالفه فهاذ ما يسعى إليه الإنسان . وإلاَّ فسرعان ما يمل الإنسان فذلك هو سر الحياة . ومظاهرها المختلفة وسر تشبث الإنسان وعشقه للحياة ...فلة كانت على مظهر واحد لا يتغير لزهدها الإنسان وعزف عنها . ولكن تلك المظاهر متجددة . كذلك تجد عشق الإنسان لها مواكبا لهذا التجدد ؛ لأنه يجد نفسه وروحه في هذا التجدد . وينأى بها عن الجمود والتحجر والسكون . والحياة هي التوتر والقلق والاضطراب والحركة والتغير والانفعال والعطاء والأخذ .

هذا الجزء من القصة يعرض لنا جانبا من شخصية القاص وفلسفته ويصحح بعض المفاهيم الخاطئة والحكام التي تطلق بلا تبصر مثل مفهوم (متشائم) أو (متفاءل) فتلك المفاهيم فضفاضة لا تحسم ولا تعطي رأيا صادقا ... فلا يوجد إنسان متشائم ولا آخر متفاءل ن فتلك المفاهيم بمثابة أرفف كتلك التي يوضع فوقها البضائع والسلع للتصنيف والتنظيم ، وليس الإنسان كتلك السلع .

فالمازني يعشق كل شيء في الحياة والطبيعة ، يعشق الموت ...لأنه والحياة يمثلان ثنائية التغير والتجدد .

وهو يقف من الحياة والوجود موقف العاشق من معشوقته ن ولكنه يلعنها إذا ما صدر منها ما يخالف عشقه وحبه لها ، وهذا اللعن والغضب الذي صبه فوقها دليل على حقيقة حبه لها .